بثينة بنت المعتمد في المصادر التراثية

أ. د. مجد ياسر الملاح

مقدمة (أهداف البحث):

بثينة بنت المعتمد هي شاعرة إشبيليّة، وهي ابنة ملك هوالمعتمد بن عباد أشهر شعراء عصر ملوك الطوائف. وهي، كبقية أخواتها من شاعرات الأندلس، لا تحظى بنقاش مستفيض في مصادر التراث، ولذلك فإن الهدف الأساسي من هذا البحث هوالتعريف بها وبأهميتها. إن الباحث لهذا الموضوع سيجد الكثير الكثير عن دولة بني عباد وعن شاعر إشبيلية وملكها المعتمد. ولكن السؤال الذي سيطرحه البحث متعلق بكمية المعلومات التي دونها التراث عن بثينة بخاصة، وكيفية دراسة هذه المعلومات في سياق الظروف السياسية والتاريخية التي مرت بها مدينة إشبيلية في عصر الطوائف.

وسيقوم البحث الحالي بدراسة صورة بثينة في مصادر التراث القديمة واستكشاف مدى ذكرها في تلك المصادر، ككتاب "نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب" للمقري، وكتاب "الإحاطة في أخبار غرناطة" لابن الخطيب، وغيرهما من كتب التراث القديمة. وسيقوم البحث أيضاً بعرض للدراسات الحديثة التي شملت بثينة أوذكرتها. وسيركز البحث على الظروف الثقافية والسياسية التي كانت تمر بها الأندلس في تلك الفترة وعلاقتها بشعر بثينة بخاصة. إذاً، فإن هذا البحث سيتجه إلى تحليل الشعر المحفوظ لبثينة في سياق الفترة السياسية الخاصة التي ترعرعت فيها شاعرتنا، وهي فترة ممتدة من عصر ملك المعتمد في إشبيلية إلى فترة دولة المرابطين ونهاية عصر ملوك الطوائف.

نبذة تاريخية عن دولة بني عباد:

إن بداية دولة بني عباد مرتبطة بعصر ملوك الطوائف ونهاية الخلافة الأموية في الأندلس بعد سنوات من الفتنة التي فتكت بقرطبة في بدايات القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي. ومؤسس هذه الدولة هوأبوالقاسم محمد بن عباد الذي كان يشغل منصب القاضي في مدينة إشبيلية عندما أصبح الحاكم الفعلي في سنة ٤١٤هـ/١٠١٣م. ودام حكمه إلى تاريخ وفاته في سنة ٤٣٣هـ/١٠٤٢م، وهي السنة نفسها التي تولى فيها ابنه أبوعمروالحكم بعده. ويعتبر حكم أبي عمروالذي لقب بالمعتضد بالله مفصلياً من الناحية السياسية لدولة بني عباد. فقد تولى الحكم لمدة ثلاثين سنة تقريباً قام فيها بتوسيع الدولة العبادية على حساب بعض دول ملوك الطوائف المجاورة له، وهومعروف بتنافسه مع دول ذات أصول بربرية بخاصة، وهوالذي رفع راية الجالية العربية في الأندلس لأنه وعائلته من أصول عربية. توفي المعتضد سنة ٤٦١ هـ/ ١٠٦٩م، ثم تولى مقاليد الحكم بعده ابنه المعتمد، وهوالشاعر والملك المشهور الذي بقي في الحكم حتى دخول يوسف بن تاشفين إلى الأندلس وسيطرة دولة المرابطين على الأندلس فقبض على المعتمد بعد دفاع مستميت عن مدينة إشبيلية ثم نُفي إلى المغرب حيث توفي في مدينة أغمات سنة ٤٨٧هـ/١٠٩٥م. وقصة نهاية حكم المعتمد قصة محزنة للغاية دونتها كتب التراث القديمة، ووردت في مسرحية لأحمد شوقي كتبها في بداية القرن العشرين بعنوان " أميرة الأندلس".

والمعتمد من شخصيات الأندلس التي بقيت محفوظة في الذاكرة رغم تلك النهاية المحزنة والقاسية لشخص قام بدور قيادي مهم في فترة صعبة من تاريخ الأندلس. فقد قام المعتمد على سبيل المثال بضم مدينة قرطبة لملكته بالإضافة للسيطرة على معظم مناطق الجنوب الغربي مما بقي من الأندلس، وهووالده قاما بدور مهم في توحيد جنوب الأندلس بدلاً من وجود عدة ممالك في عدة مدن، هذا من الجانب السياسي. أما الجانب الثقافي فالمعتمد، بدون شك، من أشهر شعراء الأندلس وأهمهم في تلك الفترة بخاصة، وربما كان أشهر شاعر طوال فترة الحكم العربي الإسلامي في الأندلس، أضف إلى ذلك أنه كان من مشجعي الأدب

والشعر في بلاطه ودولته بعامة.

بثينة بنت المعتمد: شاعرة إشبيلية

وليس من الغريب، في سياق تشجيع المعتمد للشعر والأدب، أن تكون ابنته بثينة إحدى شاعرات الأندلس في تلك الفترة. وسنبدأ هنا بعرض ما حفظته كتب التراث القديم عن بثية أوأي ذكر لبنات المعتمد بن عباد. وفي هذا السياق فلا بد من تدوين الخبر الكامل من كتاب "نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب". يقول المقري في تدوينة لشاعرتنا بثينة:

"وأمها الرميكية السابقة الذكر، وكانت بثينة هذه نحواً من أمها في الجمال والنادرة ونظم الشعر، ولما أحيط بأبيها، ووقع النهب في قصره، كانت من جملة من سُبي، ولم يزل المعتمد والرميكية عليها في وله دائم لا يعلمان ما آل إليه أمرها إلى أن كتبت إليهما بالشعر المشهور المتداول بين الناس في المغرب، وكان أحد تجار إشبيلية اشتراها على أنها جارية سرية ووهبها لابنه، فنظر من شأنها وهُيئت له، فلما أراد الدخول عليها امتنعت، وأظهرت نسبها، وقالت: لا أحل إلا بعقد النكاح إن رضي أبي بذلك، وأشارت عليهم بتوجيه كتاب من قبلها لأبيها، وانتظار جوابه، فكان الذي كتبته بخطها من نظمها ما صورته:

اسمع كلامي واستمع لمقالتي
فهي السلوك بدت من الأجياد
لا تنكروا أني سُبيتُ وأنني
بنت لملك من بني عباد
ملك عظيم قد تولى عصرُه
وكذا الزمانُ يؤول للإفساد
لما أراد الله فُرقةَ شملنا
وأذاقنا طعم الأسى عن زاد
قامَ النفاق على أبي في مُلكه
فدنا الفراقُ ولم يكن بمراد
فخرجتُ هاربةً فحازني امرؤ
لم يأتِ في إعجاله بسداد
إذ باعني بيع العبيدِ فضمني
مَن صانني إلا من الأنكاد
وأرادني لنكاح نجلٍ طاهرٍ
حَسَنِ الخلائقِ من بنيِ الأنجاد
ومضى إليك يسومُ رأيك في الرضى
ولأنت تنظرُ في طريقِ رشادي
فعساك يا أبتي تعرفني به
إن كانَ ممن يُرتجى لوداد
وعسى رميكيةُ الملوك بفضلها
تدعولنا بالیُمن والإسعاد

فلما وصل شعرها لأبيها وهوبأغمات، واقع في شراك الكروب والأزمات، سُر هووأمها بحياتها، ورأيا أن ذلك للنفس من أحسن أمنياتها، إذ علما مآل أمرها، وجبر كسرها، إذ ذاك أخف الضررين، وإن كان الكرب قد ستر القلب منه حجابُ رَين، وأشهد على نفسه بعقد نكاحها من الصبي المذكور، وكتب إليها أثناء كتابه مما يدل على حسن صبره المشكور:

بنيتي كوني به بَرةً
فقد قضى الوقتُ بإسعافه

وأخبار المعتمد بن عباد تذيب الأكباد، فلنرجع الى ذكر نساء الأندلس".

(المقري، ج ٤،ص ٢٨٤-٢٨٥)

ومن المستغرب فعلاً أن بثينة مذكورة في كتاب "نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب" للمقري الذي لا يكتفي بذكرها بشكل عابر بل إنه يدون لها قصيدة كاملة كما نرى هنا. والغريب في الأمر أن كتب التراث القديمة الأخرى لا تذكرها مطلقاً في حدود ما وجدت. فعلى سبيل المثال ليس هناك ذكر لها في "كتاب الإحاطة في أخبار غرناطة" للسان الدين بن الخطيب مع أن الكاتب يخصص قسماً موسعاً لوالدها المعتمد بن عباد. والأمر هنا لا يتعلق بعدم ذكر المرأة الشاعرة، فابن الخطيب لا يتوانى عن ذكر عدد من شاعرات الأندلس ولكنه لا يتطرق لذكر بثينة لا من قريب أوبعيد. فهو،على سبيل المثال، يذكر بنات المعتمد في سياق الحديث عن محنته بعد نفيه من إشبيلية، فيقول: "وجرى على بناته شيء يومَ خروجهن، واضطرتهن الضيعة إلى معيشتهن من غزْل أيديهن" (ج ٢، ص ١١٨). ويؤكد هذا الخبر ما كان قد ذكره من قبله ابن خلكان في كتابه "وفيات الأعيان" حيث يقول:

"ودخل عليه يوماً بناته للسجن، وكان يوم عيد، وكن يغزلن للناس بالأجرة في أغمات، حتى أن إحداهن غزلت لبيت صاحب الشرطة الذي كان في خدمة أبيها وهوفي سلطانه، فرآهن في أطمار رثة وحالة سيئة، فصدعْن قلبه وأنشد:

فيما مضى كنت بالأعياد مسروراً
فساءك العيدَ في أغماتَ مأسورا
ترى بناتِك في الأطمار جائعةً
يغزلن للناس لا يملكن قطميرا
برزن نحوك للتسليم خاشعةً
أبصارهن حسيرات مكاسيرا
يطأنَ في الطين والأقدام حافية
كأنها لم تطأ مسكاً وكافورا

ومنها أيضاً:

لا خد إلا يشكوالجدب ظاهره
وليس إلا مع الأنفاس ممطورا
قد كان دهرك إن تأمره ممتثلاً
ردَّكَ الدهرُ منهياً ومأمورا

من بات بعدك في ملكٍ يُسرُّ به
فإنما بات بالأحلام مغرورا

(ابن خلكان، ج ٥ ص ٣٥-٣٦)

وللتأكد نظرتُ في مجموعة من كتب التراث مثل "المُغرب في حُلى المغرب" و"كتاب الصلة" وكتاب "تكملة الصلة" وغيرها، فلم أجد أي ذكر لبثينة في أي منها.

إذاً يجب الاعتماد على ما ورد في كتاب "نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب"، وهو المصدر نفسه الذي يعتمد عليه النقاد الحديثون عندما يتكلمون عن بثينة. فالدكتور الشكعة ،على سبيل المثال، يخصص قسماً لا بأس به للحديث عنها عند حديثه عن شاعرات إشبيلية. وهويعتمد في عرضه لشاعرتنا بثينة كلياً على "نفح الطيب" (ص ١٦٩-١٧٢). ويمكن الإشارة هنا إلى مسرحية كتبها أمير الشعراء أحمد شوقي في بدايات القرن العشرين بعنوان "أميرة الأندلس" التي تدور حول قصة خيالية عن بثينة بخاصة وعن المعتمد ومحنته بعامة. ولا شك في أن أحمد شوقي اعتمد، إلى حد ما، على ما ورد في كتاب "نفح الطيب" إلا أنه دمج ما قرأه من كتاب "وفيات الأعيان" والخبر المذكور مسبقاً في الصفحات السابقة.

تحليل الأخبار من "نفح الطيب" و"وفيات الأعيان" في السياق التاريخي:

لا بد لنا إذاً من أن نتساءل عن عدم وجود أي معلومات عن بثينة وشعرها إلا عند الكاتب المقري. وحتى نتمكن من الإجابة عن هذا السؤال لا بد لنا من التدقيق في ما قاله المقري في نهاية روايته لهذا الخبر وربط الأمر بالسياق التاريخي وبخاصة مع نهاية الدولة العبادية في الأندلس.

والهدف هنا ليس التشكيك في ما ورد في كتاب "نفح الطيب" لأن فضل المقري في حفظ تراث الأندلس لا يمكن إنكاره. فهومن بيت علم حيث درس وترعرع في المغرب ودوَّن في تلك الحقبة كثيراً من المعلومات والنصوص التي استخدمها في مؤلفاته أمثال "نفح الطيب" (بروفنسال وبالات). وللأمانة العلمية لا بد من ذكر أن أحد أساتذة المقري، وهومحمد بن أبي بكر، لم يظهر ثقة كاملة بمصداقيته في نقل الحديث (بروفنسال وبالات). ولكن هذه القضية ليست مفصلية هنا لأنه، للحق وللأمانة العلمية، ليس بمقدورنا إثبات مصداقية الخبر المتصل ببثينة بخاصة أوعدم مصداقيته.

إذاً ما الحل؟ الحقيقة أن الحل الوحيد هوالتركيز على قراءة دلالات الخبر ومحاولة تحليل هدف الخبر المذكور في سياقه التاريخي وسياق سيرة المقري أيضاً.

وسنبدأ بسيرة المقري التي هي في رأيي مهمة جداً لفهم دلالات هذا الخبر. فقد ولد المقري في المغرب في تلمسان سنة ٩٨٦هـ/١٥٧٧م، ودرس في المغرب، وأصبح إماماً ومفتياً في مدينة فاس حتى سنة ١٠٢٧هـ/١٦١٧م. وفي تلك السنة أوبعدها بسنة قرر المقري أداء فريضة الحج فسافر إلى المشرق، ولم يعد بعدها إلى المغرب حيث توفي في القاهرة سنة ١٠٤١هـ/١٦٣٢م. ولا بد هنا من الإشارة إلى أن المقري ترك المغرب على عجل بعد تأليفه لكتاب "أزهار الرياض" حيث اتُّهِمَ بتفضيل قبيلة عنيفة. ويبدوأنه قرَّر السفر للحج بسبب هذه المحنة بدليل أنه ترك زوجته وابنته في المغرب، وترك لزوجته وثيقة تُمكنها من الطلاق منه بعد سفره (بروفنسال وبالات). وهذا يدل على أنه لم يكن ينوي العودة إلى المغرب، ويؤكد هذا فعلاً أنه لم يعد إلى المغرب مطلقاً بعد سفره.

وهنا أود التركيزعلى فكرة الربط بين محنة المقري في "المنفى" ومحنة المعتمد المشابهة لها (مع بعض الاختلافات بالطبع)، وكيف أن هذه هي الفكرة المحورية لفهم الخبر المذكور عند المقري فقط عن ابنة المعتمد بثينة. في بداية الأمر لا بد من الإشارة إلى أن عدم وجود معلومات عن بثينة في المصادر التي تعتبر أقدم وأقرب تاريخياً إلى الحدث شيء له دلالة بلا شك. فكيف لا يذكر لسان الدين بن الخطيب (المتوفى ٧٧٦هـ/١٣٧٤م) شيئاً عن بثينة، وهويخصص قسماً كبيراً للحديث عن والدها؟ إلا أن ابن الخطيب يذكر محنة المعتمد التي أدت إلى وضع بناته "الأميرات" اللواتي اضطرتهن قلة الحال للغزل والعيشة المذلة بعد الترف والقصور وما إلى ذلك. وهذه معلومات كان قد ذكرها من قبله ابن خلكان (المتوفى ٦٨١هـ/ ١٢٨٢م) في "وفيات الأعيان"، ولكن بشكل مفصل كما رأينا من الخبر السابق ذكره. وأنا لا أشكك في أن المقري من الممكن أنه وجد معلومات إضافية (مثل الخبر عن بثينة) وقام بإضافته لكتابه، ولكن الفكرة هنا أن الطريقة التي عرض فيها الخبر لها دلالات.

إن فكرة سبي بثينة وبيعها كالجواري

هي قمة الذل من وجهة نظر شخص مثل المعتمد الذي تمتع بأوجه الترف كافة في ملكه بإشبيلية. وهووصل إلى درجة توحيد معظم مناطق الأندلس تحت حكمه باستثناء غرناطة والمرية في الجنوب (هتشكوك ١٢٣)، أي بمعنى آخر وصل إلى أعلى الدرجات من الناحية السياسية في تلك الفترة، وكان على وشك توحيد جميع مناطق الأندلس تحت حكمه بما في ذلك مدينة قرطبة التي كانت حاضرة الخلافة الأموية، فيمكننا الاستنتاج هنا أن المعتمد كان له طموح كبير من الناحية السياسية، ووصل إلى درجة عالية جداً، غير أن النهاية كانت محزنة للغاية بما في ذلك المذلة التي وصلت إليها حالته بسبب السجن والمنفى في أغمات والذل له ولأهل بيته وقد كان له في إشبيلية مُلك عريض !! وفعلياً فقد "مات" المعتمد في "أغمات" التي اسمها يدل على الموت بلا أدنى شك بعد أربع سنوات فقط من خروجه من إشبيلية في الخمسينيات من عمره.

وهنا لا بد من العودة إلى نهاية الخبر عن بثينة، كما يرويه المقري، فهويقول: " وأخبار المعتمد بن عباد، تذيب الأكباد، فلنرجع إلى ذكر نساء الأندلس." وهوفعل أمر يدعوللحيرة، فالخبر الذي هوأصلاً عن بثينة قد تحول إلى كونه خبرا مؤلما "يذيب الأكباد" عن المعتمد. فالكاتب لا يظهر الكثير من التعاطف مع بثينة ومحنتها في هذا الظرف القاسي غير أنه يركز على محنة المعتمد التي تبدومحورية له في هذا الخبر، وفي الأجزاء الأخرى من "نفح الطيب" التي تركز على المعتمد ومحنته. وهنا لا بد من الإشارة إلى أن المقري، للأمانة العلمية، قد صور بثينة بشكل إيجابي، فهي قمة في الولاء لوالدها، ولموقعها، وهي أميرة نبيلة، ظلَّت تتصرف كالأميرة الأبية حتى وهي في موقع ضعف. وإصرارها على الحصول على موافقة والدها، وهذا يصورها بشكل إيجابي، يدعوإلى الإعجاب والاحترام بلا أدنى شك. ولكن القضية المحورية، كما أشرت، هي محنة المعتمد وليست محنتها هي، بدليل نهاية الخبر و"هروب" المقري إلى أخبار شاعرات الأندلس لأن خبر المعتمد بالنسبة له هوقمة في الحزن وتقطيع الأكباد.

ولا شك في أن هذا ليس بعيدا عن الحقيقة. فقصة المعتمد محزنة للغاية، وهي قصة إنسانية يتعاطف معها أي شخص. ولكن أطروحتي هنا أن قصة بثينة، والطريقة التي عرضها فيها المقري لها أبعاد نفسية دفينة في أعماق الكاتب المقري تعود إلى تجربته هونفسه مع "المنفى" وترك زوجته وابنته في المغرب عندما سافر للحج. وأركز هنا بشكل خاص على محورية ترك ابنته بشكل خاص والمشاعر الدفينة المليئة بالحزن والقلق والشعور بالذنب.

الخاتمة:

وبعد فإنه يمكننا الاستنتاج بأن مصادر التراث القديمة بداية من "وفيات الأعيان" لابن خلكان و"الإحاطة في أخبار غرناطة" للسان الدين بن الخطيب ثم نهاية "نفح الطيب" للمقري تركز بشكل محوري على محنة المعتمد بن عباد بعد فقدانه ملكه في إشبيلية. وتؤكد المصادر الأقدم من هذين المرجعين (أي "وفيات الأعيان" و"الإحاطة في أخبار غرناطة") محنة المعتمد من خلال ذكر بناته والحالة المذلة التي وصلن إليها بعد فقدان المعتمد ملكه وبعد نفيه إلى المغرب وموته في أغمات.

ثم يأتي دور المقري في تأكيد هذه المحنة من خلال ذكر بثينة التي يمكن أن نقول إنها أعطت محنة المعتمد بعداً إنسانياً عميقاً. ويبدوأن محنة المقري في "المنفى" قد تكون من أسباب تركيزه على محورية بثينة من نواح عدة تجدر الإشارة إليها: أولها: الناحية الإنسانية أي ذلك الجانب الذي أشرت إليه وقدرة المقري على توظيف هذا الجانب بسبب محنته في المنفى. وثانيها: الناحيتان السياسية والثقافية وهما، لا شك في ذلك، مرتبطتان بالقصة، فمن الناحية السياسية يمكن ربط مأساة المنفى للجانب السياسي المرتبط بفقدان الأرض. ويجب الإشارة هنا إلى دلالات اسم بثينة المرتبط بالأرض (لسان العرب- -مادة: بثن) فدلالة سبيها مرتبط بالإهانة السياسية التى واجهها المعتمد عندما فقد سيطرته على مملكته في إشبيلية وأدت إلى فقدان الأرض والملك معاً.

أما الناحية الثقافية، وهي جانب مهم جداً أدركه المقري أكثر من غيره، فهي أمر جوهري للغاية. بمعنى أن حفظ ذكرى المعتمد مرتبط بمأساته الإنسانية ومحنته غير أنه أيضاً مرتبط بالموروث الثقافي الذي تركه وهوشاعر وأديب ربَّى أهله على هذه المبادئ. وقصة بثينة هي أكبر إثبات على ذلك، فهي تدل على ذلك الموروث من خلال شعرها وأخلاقها الكريمة التي حفظها لنا المقري.

قائمة المصادر والمراجع العربية:

ابن خلكان. وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان. تحقيق: إحسان عباس. بيروت: دار صادر،١٩٩٤.

أحمد شوقي. مسرحية أميرة الأندلس.القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٢ .

لسان الدين بن الخطيب. الإحاطة في أخبار غرناطة. تحقيق محمد عبد الله عنان. القاهرة: مكتبة الخانجي المعارف.

عبد الرحمن علي الحجي. التاريخ الأندلسي من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة. دمشق: دار القلم، ٢٠١٠.

محمد المنتصر الريسوني. الشعر النسوي في الأندلس. بيروت: دار مكتبة الحياة، ١٩٧٨.

مصطفى الشكعة. الأدب الأندلسي: موضوعاته وفنونه. بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٨٣.

إحسان عباس. تاريخ الأدب الأندلسي: عصر سيادة قرطبة. عمان: دار الشروق، ٢٠١١.

أحمد بن محمد المقري. نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب. تحقيق الدكتور إحسان عباس. بيروت: دار صادر، ٢٠١٢.

ياسر الملاح. من الفجر الى الغروب: قصة الأدب العربي في الأندلس. القدس: مطبعة الإسراء، ١٩٩٣.

قائمة المراجع بالانجليزية:

Al-Mallah, Majd. In the Shadows of the Master: Al-Mutanabbi's Legacy and the Quest for the Center in Fatimid and Andalusian Poetry. Berkshire: Berkshire Academic Press, ٢٠١٢

Hammond, Marle. Beyond Elegy: Classical Arabic Women's Poetry in Context. Oxford: Oxford University Press, ٢٠١٠.

Hitchcock, Richard. Muslim Spain Reconsidered from ١٥٠٢-٧١١. Edinburgh: Edinburgh University Press, ٢٠١٤.

Lévi-Provençal, E.; Latham, J.D.; Torres Balbás, L.; G. S. Colin. "al Andalus." Encyclopaedia of Islam, Second Edition. Edited by: P.Bearman, Th. Bianquis, C.E. Bosworth, E. van Donzel, W.P. Heinrichs. Brill Online, ٢٠١٦.

Lévi-Provençal, E. "Abbadids" Encyclopaedia of Islam, Second Edition. Edited by: P.Bearman, Th. Bianquis, C.E. Bosworth, E. van Donzel, W.P. Heinrichs. Brill Online, ٢٠١٧.

Lévi-Provençal, E.; Ch. Pallat "Al-Makkari" Encyclopaedia of Islam, Second Edition. Edited by: P.Bearman, Th. Bianquis, C.E Bosworth, E. van Donzel, W.P. Heinrichs. Brill Online, ٢٠١٧.